حرفياً إنهم يريدون لعملية تكريت أن تكون مختلفة في النتائج (عن معركة كوباني/عين العرب التي ساواها الطيران الأميركي والدولي بالأرض وعدم إلحاق الأذى بالمدنيين) عبر عمليات الأرض المحروقة والقصف السجادي التي لطالما اعتمدها الجيش الأميركي قديماً وحديثاً في العراق وغيره، والمرجح أن يكون العبادي ومن معه يدركون ثمن الانتصار الباهظ في معركة كهذه إذا خيضت بالطرق «الأميركية» التقليدية.

على صعيد الوزن العسكري للقوتين المتواجهتين، وإذا ما علمنا أن بعض التقديرات لعديد قوات مسلحي تنظيم «الدولة» تذهب إلى أنهم قد لا يزيدون على ألفي مقاتل في تكريت، في مواجهة أكثر من ثلاثين ألفاً من القوات الحكومية ومساندیها، فسنكون أمام فرق كبير في الأعداد والمعدات بين القوتين المتحاربتين، ولكن هذا الفرق، كما يفسر المحللون العسكريون، طبيعي جداً في هذا النوع من المعارك لأسباب عدة منها:

إن القوات الحكومية المشتركة فعلاً في عمليات التقدم والاقتحام في مواجهة مسلحي تنظيم «الدولة» لا تتجاوز بضعة آلاف مقاتل، أما غالبية القوات الأخرى فستكون مهمتها مسك الأرض وتطهيرها من الألغام والعبوات الناسفة والتمهيد لإعادة النازحين إلى ديارهم وهم بمئات الآلاف، وعدم تكرار ما كان يحدث سابقاً من عمليات تطهير واستيلاء سريعة يتلوها انسحاب وهكذا. وثانياً، فالتنظيم التكفيري يخوض حرب عصابات انتحارية تقوم على تكتيكات دفاعية تعتمد التفخيخ الشامل والهجمات الدفاعية الانتحارية والقنص الكثيف، وهذه التكتيكات التي أثبتت جدواها وفعاليتها تستلزم عديداً كبيراً في القوات المهاجمة. عامل آخر ومهم يفسر لنا هذا الفارق بين القوتين هو اتساع رقعة ميدان المعركة الرئيسية والذي قدره بعض المحللين بخمسين كليومتراً طولاً، وخمسة وعشرين كيلومتراً عرضاً، أي ما يساوي تقريباً ألفاً ومئتين وخمسين كيلو متراً مربعاً، وهذه مساحة هائلة وذات تضاريس متنوعة وصعبة عرفت بها محافظة صلاح الدين تستلزم عديداً كبيراً وغطاء جوياً كثيفاً أيضاً.

على الأرض جاءت النتائج الرقمية المعلنة لهذه العملية جيدة ومتفائلة من وجهة نظر الحكومة التي أعلنت يوم أمس أن أكثر 97 قضاء وناحية وقرية وحياً تم تطهيرها، أتبعتها اليوم بأخبار أكدت فيها تحرير أكثر من سبع مناطق في المحافظة. غير أن طابع البطء في التنفيذ لا يمكن إنكاره وأن العملية ككل ستستغرق وقتاً أطول، رغم التصريحات الحكومية التي قالت بأن التنفيذ كان أسرع مما خطط له في اليومين الثاني والثالث، أما اليوم فيبدو أن التوقعات بدأت تميل إلى «الواقعية» وهو ما صرح به النائب عن دولة القانون والمستشار الأمني السابق لحاكم العراق بول بريمر موفق الربيعي، الذي قال إن العمليات ستستغرق وقتاً أطول، متناغماً بذلك مع ما قاله مسؤولون وصحف أميركية لا يبدو أنها متحمسة لرؤية انتصار عراقي بعيد عنها.

غير أن وجهات النظر الأقل تفاؤلاً هذه ليست خالية من المضمون تماماً، فالأكيد هو أن ثمن الانتصار على مسلحي «داعش» دون تدمير المدن على الطريقة الأميركية سيكون باهظاً وشاقاً وسيستغرق وقتاً أطول وقد يتحول إلى حرب استنزاف طويلة كما تنبأت صحيفة «واشنطن بوست»، أما الحكومة العراقية أو للدقة نظام الحكم ككل فقد راهن على تحقيق نصر حاسم وسريع ووضع ثقله كله في هذا الاتجاه. ويبدو أن أقطاب النظام مقتنعون بتحقيق نصر ما بعد حشد كل هذه العدة والعتاد واستثمروا الأجواء السياسية والنفسية السائدة في العراق والإقليم والعالم بعد سلسلة جرائم تنظيم «الدولة» خلال الأشهر الماضية.

إن من الممكن والمرجح انتهاء معركة تكريت بهزيمة «داعش» في مدى زمني متوسط، ولكن بحصيلة أثقل من الخسائر في صفوف القوات الحكومية والمساندة لها، غير أن نهاية هذه المعركة لن تكون نهاية الحرب ضد التمرد التكفيري المسلح إنما قد تكون بداية هذه النهاية.

إن نظام الحكم في العراق ليس مؤهلاً لهزيمة هذا التمرد المسلح الرجعي ذي السمات الفاشية بشكل تام ونهائي، ولا هو جدير به. وهو حتى لو كسب هذه المعركة فلن يفعل سوى أن يطيل أيامه قليلاً ولكنه لن يصلح ما أفسده وتسبب به من مصائب وويلات للعراقيين على جميع الصُعد، غير أن هذا الموقف النقدي من نظام الحكم المحاصصاتي لا ينبغي أن تترتب عليه مواقف معارضة أو متحفظة على العملية العسكرية التي تستهدف القضاء على التمرد التكفيري المسلح وتطهير المدن والمناطق التي يسيطر عليها وإنقاذ أهلها من شروره، فثمة مساحة ينبغي أن تستعمل بحذر وانتباه من قبل القوى والعناصر الديموقراطية واليسارية العراقية على هشاشتها وتشرذمها، وتقع تلك المساحة بين خط معارضة نظام حكم المحاصصة الطائفية وبين التأييد الواعي والمتحفظ للمؤسسة الأمنية العراقية الساعية لهزيمة هذا التمرد ومشروعه الظلامي، السياسي والاجتماعي.

* كاتب عراقي

متى كانت دماء العراقيين أو غيرهم تؤخذ في حساب العسكرية الأميركية؟

هيمنة الخطاب الدينيّ المُتشدّد والأصوليّ على الأجندة العربيّة، أعادتنا سنوات إلى الوراء

سنوات، حتى انتصرت الإرادة الشعبيّة على الطاغوت الأميركيّ وكنسته من بلادها إلى غير رجعة.

■■■

وبما أنّ هذه الدول انتصرت على الباطل، فكان من الطبيعيّ أنْ تنتصر للضعفاء وللمُستضعفين على وجه هذه البسيطة، والأمثلة على ذلك كثيرة: أتذكرون البطل هوغو تشافيز، الذي أصبح عربياً أكثر من العرب، وقطع علاقاته مع دولة الاحتلال بسبب ممارساتها ضدّ الشعب العربيّ الفلسطينيّ؟ أتذكرون كيف أمهل سفارة تل أبيب في كاراكاس 72 ساعة لمغادرة بلاده بعد أنْ أعلن قطع علاقاته مع إسرائيل؟ أتذكرون أنّه قام بهذه الخطوات، في الوقت الذي كان فيه السواد الأعظم من الحكّام العرب يقومون بدور الخيانة والتخاذل والتواطؤ مع «العدو الصهيونيّ». دولٌ في أميركا اللاتينيّة تقطع علاقاتها الدبلوماسيّة مع إسرائيل، وفي الوقت عينه، حكّام العرب يستجدون هذه الدولة المارقة ويدّقون على أبوابها سراً وعلانيةً للإجهاز على ما تبقّى من فلسطين؟ ويحجّون إلى البيت الأبيض استرضاءً للرئيس الموجود هناك، ذلك أنّ العروش المهزوزة، والمأزومة والمهزومة، لا تقدر على مواصلة مسيرة التخلّف وتكريس الأميّة ومُعاداة الحضارة، بدون ماما أميركا وحمايتها. وهنا يتبادر إلى الذهن السؤال الأهّم باعتقادنا المتواضع: لماذا لم تتمكّن رأس الأفعى، أميركا، من تأسيس وتشكيل تنظيمات وحشيّة وبربرية على شاكلة داعش؟ لماذا فشلت في إقامة داعش كولومبيّ؟ هل لأنّ رجال الدين في أميركا اللاتينيّة كانوا إلى جانب الثوار؟ أوْ لنسأل بصورةٍ أكثر صريحة: هل لأنّ هذه الشعوب المسيحيّة -الكاثوليكيّة، على الرغم من أنّها متدينةً جداً، قررت أنّ احترام الدين وتعاليمه لا يتناقض بالمرّة مع تطلعاتها إلى الحريّة والاستقلال؟ خلافاً لما يجري في الوطن العربيّ، حيث يتحالف المُفكّر مع المُكفّر لإخافة الشعوب. وأكثر من ذلك، لقد صدق مَنْ قال إنّ هناك بوناً شاسعاً بين أمّة مشغولة بتفسير الأحلام وبين أمّة تعمل على تحقيقها. الفتاوى تصدر من كلّ حدب وصوب، ونحن، نخاف الله جداً، نسير بُحسبها ووفقها، على الرغم من أنّ سوادها الأعظم يصدر من «رجال دين» لا نعرف أصلهم من فصلهم. نحن، يجب التأكيد، ليس ضدّ التدّين، ولكن في المُقابل نرفض رفضاً قاطعاً أنْ يكون الدين هو المرجعيّة الوحيدة لنا. مُضافاً إلى ذلك، في زمن العولمة، باتت فضائيات الدين والتدّين تنتشر في عالمنا العربيّ كالنار في الهشيم، هذا يُحرّض، ذاك يُكفّر والثالث يُفسّر بطريقةٍ مشوهةٍ لإقناع المُشاهدين؟ لماذا هذا الكم الهائل من هذه الفضائيات المُعادية لكلّ ما هو قوميّ عربيّ؟ هل هذا التنوير الذي نطمح إليه؟ هل بهذه الطريقة نتحرر من الدواعش على أشكالهم؟ ولكن، لماذا نعود باللائمة على هذه الفضائيات في الوقت الذي تقوم فيه دول عربيّة بدعم هذه التنظيمات التكفيريّة بالأسلحة والعتاد وبالأموال المنهوبة من الشعوب؟

■■■

لا يُمكن إعادة كتابة التاريخ، وبالتالي علينا أن نلجأ إلى القائد والمُعلّم والمُلهم، جمال عبد الناصر، الذي قال عن جماعة الإخوان المُسلمين: «إنني حاولت التعامل مع الإخوان المسلمين، ولكن بكلّ أسفٍ وجدت فكرهم يتلخّص في الوصول إلى السلطة بأيّ ثمن، ولا يوجد أيّ مستقبل لديهم في رفعة وإعلاء الوطن، وعندما انتقدتهم حاولوا اغتيالي، ولا يوجد عليه أمان على الإطلاق». وما أشبه اليوم باللبارحة: الحركات الأصوليّة المُتشدّدة في الوطن العربيّ انتقلت إلى مرحلة أسوأ من مرحلة الستينيات من القرن الماضي. لقد باتت تذبح الأبرياء، وتحرق الأحياء، وتقوم بعمليات وحشيّة يعجز الإنسان العاديّ عن فهمها. تنشرها ليرى العالم كم نحن إرهابيون وقتلة وسفّاحون، فيما تُواصل أميركا وإسرائيل الضحك علينا، وإيهامنا بأننّا فعلاً نمُرّ في الربيع العربيّ، والمأساة الكبرى، أنّه باسم الدين نقوم بتشويهه، وتشويه صورة العرب والمسلمين في العالم... وما زالت «الثورة السلميّة» في سوريّة العروبة مستمرّة!

■■■

خلاصة القول: هيمنة الخطاب الدينيّ المُتشدّد والأصوليّ على الأجندة العربيّة، أعادنا سنوات إلى الوراء، وجاء على حساب تقهقر الخطاب القوميّ العربيّ الوحدويّ، ومن دون فصل الدين عن الدولة والسياسة، لا أمل لهذه الأمّة بالنهوض.

*كاتب عربيّ - فلسطين